فوائد مادة التفسير

من كتاب

تيسير الكريم الرحمن من تفسير كلام المنان

للعلامة

عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله

من إملاء

شيخنا أبي عبد الله عبد الرحمن القاضي

غفر الله لنا وله ولجميع المسلمين

﴿السنة الثانية﴾

فوائد التفسير

قال الله –عز وجل–:

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ *وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ* وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}.

بعض الفوائد من الآيات:

١ – إنَّ إظهار فضل آدم إنَّما بالعلم وأنَّ الملائكة إنَّما تعجبوا من خلقه بعد إخبار الله لهم أنه سيكون من ذريته من الإفساد في الأرض وسفك الدماء ، فمراجعة الملائكة لربها لا لحسد آدم ولا للكبر في أنفسها، وكذلك لا اعتراضًا على ربها وإنَّما تعجبًا وسؤالاً وبحثًا عن الحكمة .

٢ – قوله تعالى (إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) ، هذه الآية فيها ثلاث مؤكدات لاختصاص الله تعالى بكمال العلم وكمال الحكمة :

أ – المؤَكِّد الأول : " إنَّ " المؤَكِّدة في قوله: "إنَّك" .

ب – المؤَكِّد الثاني : الضمير الْمُنفصل في قوله: "أنت" .

ج – المؤَكِّد الثالث : " ال " الدالة على الاستغراق .

٣ – **ومن فوائد هذه الآية : أنَّ الحكمة الإلهية نوعان :**

أ – **حكمة قدرية كونية** : ومعناها أنَّ الله ما خلق خلقًا ولا قدر قدرًا إلا لحكمة.

ب – **حكمة شرعية** : ومعناها أنَّ الله تعالى لا يُشَرِّع (أمرًا ونهيًا) إلا لحكمة.

٤ – في قول الله تعالى: {قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} .

وفي هذه الآية رد على الأشاعرة الذين يقولون أن الله يخلق لا لحكمة ويُشرِّع لا لحكمة.

(فائدة تربوية):

أنَّه لَمَّا كانت الملائكة على علم عرفت فضل آدم لَمَّا بان علمه، ولَمَّا كان إبليس عابدًا –

قبل كفره- لكنه جاهل بربه جهلاً مركبًا لَم يكن للعلم عنده فضيلة، ولهذا لم يعترف لآدم بفضله، واستكبر على أمر ربه وكان من الكافرين.

فيا ابن آدم؛ إنَّما فضلك بالعلم فإن لَم تأخذ بحظٍّ منه فلا فضل لك وإنَّما يتفاضل الناس بالعلم، والعلم يحتاج إلى الصبر، فاصبر على علو العلم أو فلتصبر على ذل الجهل.

٥ — في قول الله تعالى: {قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ}.

فيها بيان كمال علم الله تعالى بالغيب والشهادة.

٦ — من فوائد هذه الآية : إذا كان الله تعالى يعلم ما غاب عن الملائكة -بل وعلى الخلق أجمعين- فعلمه بما تعلمه الملائكة من باب أولى.

٧- قول الله -عز وجل-: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِين).

من فوائد هذه الآية أن الجنة التي وُعد المتقون مخلوقة الآن كما هو مذهب أهل السنة خلافًا للمعتزلة وغيرهم من أهل البدع والضلال الذين يقولون أن الجنة والنار تُخْلَقَان يوم القيامة.

٨- قوله -عز وجل-: (وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ).

- فيه بيان للأصل العظيم في الشريعة الإسلامية وهو باب سد الذرائع في (وَلاَ تَقْرَبَا).

- أن النهي في هذه الآية فيه مسألتان:

الأول : أن الأصل في النهي التحريم.

الثاني: بيان العاقبة بكون قربانها ظلمًا، وهذا يؤكد أن الأصل في النهي التحريم؛ إذ الظلم محرم اتفاقًا.

فهذه القاعدة على عمومها إلا بقرينة صارفة عن التحريم.

٩- قوله -عز وجل-: (أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ).

فيه رد على الباطنية الذين قالوا أن المانع لإبليس من السجود لآدم هو توحيده إذ لم يرض أن يسجد إلا لله؛ فالآية تكذبهم في كون أن المانع له من السجود هو استكباره وإباؤه فحكم الله عليه لأجل ذلك أنه من الكافرين.

قوله تعالى: {وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}.

من فوائد هذه لآية:

- أن العداوة بين آدم وذريته، وإبليس وذريته عداوة من الجهتين، فعداوة إبليس وذريته واقعة قدرًا، وعداوة آدم وذريته مأمور بها أمرًا شرعيًّا كما قال الله سبحانه وتعالى: (إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُواًّ).

وفي هذا رد على المستغربين الذين يشيعون بين الناس أن المسلم لا يعادي أحدًا فالله -عز وجل- أمر باتخاذ الشيطان عدوًّا ويدخل في اتخاذه عدوًّا حزبه من شياطين الإنس والجن، وشياطين الإنس من الكفرة والمشركين والمنافقين وأهل البدع.

- قوله تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}.

- فيها بيان لعظم رحمة الله -عز وجل- إذ علَّم الله سبحانه وتعالى آدم أسباب التوبة إليه ثم قَبِل توبته وتاب عليه، وهذا المعنى مؤكد في قوله -عز وجل-: {إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}. فتاب عليه أن وفقه إلى معرفة طريق التوبة الصحيح ووفقه عمليًّا إذ أخلص آدم -عليه السلام- توبته لربه.

- قوله تعالى: {وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ}.

في هذه الآية أن ذكر الإهباط مترتبة عليه العداوة المستمرة بين آدم وذريته وإبليس وذريته إلى يوم القيامة.

والمعنى: يا آدم؛ إن إبليس الذي كان سببًا في إخراجك من الجنة وما أظهره لك من العداوة والحسد، فعداوته وحسده لا ينقطع بإهباطك إلى الأرض، بل سيزيد من مكره وخديعته لك ولذريتك لإضلالهم وإفسادهم، وفي هذا تحذير عظيم لآدم وذريته من إبليس.

- وقوله تعالى: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً}.

في هذه الآية من الفائدة أن الذكر الثاني للإهباط إلى الأرض لأجل التذكير بما سوف ينزله الله من الهدى وهي الكتب المنزلة والرسل المبعوثون في قوله: {فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى}.

- وفي قوله تعالى: {فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} فوائد منها:

١- أن الدنيا دار عمل لقوله -عز وجل-: {فَمَن تَبِعَ}.

٢- أن ذرية آدم تنقسم إلى قسمين كما هي حال الجن:

القسم الأول: فريق في الجنة: وهم الذين تبعوا هدى الله -عز وجل-، فهؤلاء لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

القسم الثاني: فريق كفروا وكذبوا بآيات الله: {أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

٣- عرَّف الشيخ السعدي -رحمه الله- الخوف وهو الفزع والجزع مما يترقب حصوله من المكروه في المستقبل، وإن كان فيما مضى فهو الحزن.

٤- أن اتباع الهدى يكون بتصديق أخبار الرسل والكتب وامتثال أمرهم واجتناب نهيهم.

* * * * *

قوله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠) وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ}.

من فوائد الآيات:

** في قول الله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ}.

١- إسرائيل هو لقب أو اسم ثاني ليعقوب -عليه السلام- ، وبإضافة بنوَّتهم له تذكير لهم بأول هذه النِعم التي وجب عليهم أن يذكروها ويشكروها أنَّهم أبناءٌ لنبي .

٢- وذِكْره بإسرائيل و لم يذكره بيعقوب ، تذكير لهم أيضًا بمعنى هذه الكلمة (إسرائيل) أي صفوة الله من خلقه أو عبد الله ، والمعنى: اذكروا يا بني مَنْ اصطفيته مِنْ خلقي نعمتي عليكم بأن جعلتكم من بنيه واذكروا نِعمي الأخرى عليكم الآتي ذكرها.

٣ - أنَّ كلمة (نعمتي) وإن جاءت مفردة لكن هي كما قال الله تعالى {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا}، فهي ليست نعمة واحدة، وإنَّما هي نِعم كثيرة، والمعنى: اذكروا نعمي عليكم بدليل ما ذكر من النعم الكثيرة في الآيات.

** في قوله تعالى: {أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ}:

١ - أنَّ الجزاء من جنس العمل وذلك أنَّ ما وعد الله تعالى به من الجنة والخير إنَّما مرتب على ما يوفي به العبد لربه من العهد بعبادته وطاعته .

** في قوله تعالى: {إِيَّايَ فَارْهَبُونِ}:

١- {إِيَّايَ فَارْهَبُونِ} أي: فارهبوني وإنَّما قُدِّم العامل على المعمول لإفادة الحصر ، أي: فارهبوني ولا ترهبوا غيري .

** قال الله تعالى: {وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ}.

١- الأمر بالإيمان بالقرآن مُلْزِم لكل البشر .

٢ - فيه دليل على أنَّ القرآن مُنَزَّل من عند الله وليس هو من كلام النبي صلى الله عليه وسلم.

٣ - وأنَّ هذا القرآن الْمُنَزَّل من السماء إلى الأرض موافق للكتب السابقة وذلك في أمور:

أولاً : في كونها كلها مُنَزَّلة من عند الله .

ثانيًا : مُصدِّق لها في الدعوة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وكذا جميع ما يتعلق بالاعتقاد .

ثالثًا: في أنها جميعًا آمرةٌ بجوامع الفضائل وقواعد الخير وأسس الإصلاح والصلاح ناهيةً عن الشر بأنواعه والضلال بألوانه.

** **قوله تعالى:** {وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ}.

١ - لا تكونوا قدوة للناس في الكفر به لكون الناس من الأميين ينظرون إليكم على أنَّكم قدوة لهم لكونكم أصحاب كتاب، ويترتب على هذا أنَّ من كفر منهم تبعًا لكفركم فعليكم وزره لا ينقص ذلك من وزره شيء.

قوله تعالى: {ولا تشتروا بآياتي ثمنًا قليلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ}:

١- {قليلاً} هنا القلة لا مفهوم مخالفة لها، والمعنى: أنَّ كل ما يُقدَّم على كلام الله سبحانه وتعالى من عَرَض الدنيا فهو قليل ولو كان الدنيا بأسرها .

٢ – قوله: {فاتقون} أي: فاتقوا الله وحده لا شريك له وليكن الحامل لكم على ما سبق ذكره هو تقوى الله –عز وجل– بفعل أوامره والانتهاء عن نواهيه .

* * * * *

قوله تعالى: {وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤٢) وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٤٤) وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}.

في قول الله تعالى: {وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}:

فيه من الفوائد :

١ – {وَلا تَلْبِسُوا} لها أحد معنيين:

الأول : إما لا تخلطوا الحق بالباطل، من اللَّبْس وهو الاشتباه والاختلاط.

و الثاني: لا تغطوا الحق بالباطل، من اللُّبس وهو التغطية.

٢ – في النهي عن خلط الحق بالباطل أمرٌ بوجوب إظهار الحق واضحًا جليًّا لا اشتباه فيه.

٣ – فمَن دعا الناس إلى حق مخلوط بالباطل فقد ارتكب ما حرم الله ولا يُسمى داعٍ إلى الحق ، مثل أهل البدع الذين يخلطون بين الحق والباطل في دعوتهم، فلابد من دعوة الناس إلى حق صِرفٍ محضٍ.

٤ – تحريم كتمان العلم الحق ووجوب كتمان الباطل، وهذا يرد على المنهج الباطل المعاصر بما يسمى "الديمقراطية في الآراء" (الرأي والرأي الآخر). أي: إظهار الباطل مع إظهار الحق والرجوع في الحكم إلى عقول الناس، بل هي دعوة إلى احترام الباطل ومحبة قائله وعدم البراءة منه، نسأل الله العافية.

٥ – "وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ" : كتمان الحق ، أي: إخفاؤه والسكوت عن بيانه والدعوة إليه.

٦ – ويستثنى في جواز كتمان العلم الحالات الآتية :

الحالة الأولى : يجوز عند خوف عدم فهم السامع ، وجاء في حديث ضعيف: "حدِّثوا الناس بما يعقلون أتريدون أن يكذب الله ورسوله" ، وجاء في معناه أيضًا أثر عن علي بن أبي طالب ، لكن الحديث وإن كان ضعيفًا فإنَّه يؤيد معناه قول النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ رضي الله عنه: «**لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا**». وهو في الصحيحين.

الحالة الثانية : إذا تيقن وقوع فتنة ومفسدة بالبيان ، ومما يدل على هذا: حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهو في مستدرك الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، أنَّه قيل لأبي

هريرة رضي الله عنه: " أكثرت أكثرت (أي: من الحديث) فقال رضي الله عنه: «حَفِظْتُ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَادِيثَ مَا حَدَّثْتُكُمْ بِهَا، وَلَوْ حَدَّثْتُكُمْ بِحَدِيثٍ مِنْهَا لَرَجَمْتُمُونِي بِالْأَحْجَارِ».

وجاء أيضًا في مسند الإمام أحمد بسند صحيح عَنْ يَزِيدَ بْنِ الْأَصَمِّ، قَالَ: قِيلَ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: أَكْثَرْتَ أَكْثَرْتَ، قَالَ: " فَلَوْ حَدَّثْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَرَمَيْتُمُونِي بِالْقَشْعِ، وَلَمَا نَاظَرْتُمُونِي" ومعنى قوله (رميتموني بالقشع)؛ أي: اتهمتموني بالقشع؛ وهو الحمق، ويقصد رضي الله عنه أحاديث الفتن .

ويجب أن نتنبه إلى أن هذه الحالة عارضة وليست أصلاً بحيث متى ما زال هذا المقتضي رجع الأمر إلى الأصل وهو وجوب البيان.

الحالة الثالثة : إذا كان للسائل عن العلم غرضًا غير الاستفهام وإنَّما لغرضٍ غير صحيح مثل تتبع الرخص كمثل ما يُروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه سأله رجل: هل للقاتل توبة؟ فقال: لا. فروجع في هذا، فقال: إنَّه يسأل لكي يَقْتُل.

أو أن يكون غرض السائل الامتحان، فيجوز لك ألا تجيبه وذكر هذا شيخنا الإمام العثيمين رحمه الله ، وأورد هذه الفائدة في تفسير هذه الآية .

في قوله تعالى: {وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} :

الواو هنا حالية، والمعطوف جملة الحال، والمعنى: ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق حال كونكم على علم بذلك.

في قوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} :

١ – أنَّه خطاب لبني إسرائيل بالإيمان والمتابعة لمحمد صلى الله عليه وسلم.

٢ – صلاة الجماعة مسألة مختلف فيها بين أهل العلم بين وجوبها واستحبابها، وهو خلاف قوي ولكل طائفة من أصحاب القولين أدلة قوية والخلاف فيها معتبر (خلاف تنوع).

٣ – وتَقَصُّد ترك الجماعة يدل على تفريط الرجل في الأجر ،والمداومة على تركها من صفات أهل البدع والمنافقين.

قوله تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}.

فيه من الفوائد:

١ – " أَتَأْمُرُونَ": هذا استفهام استنكاري أو إنكاري الغرض منه التوبيخ، وإنَّما صُدِّرَت هذه الآية بالتوبيخ لشناعة هذا الفعل .

٢ – " تَأْمُرُونَ ": بصيغة المضارع مع حصول هذا منهم في زمن الماضي دلالة على تجدد هذا منهم ولا شك أنَّ هذا أقبح.

٣ – " الْبِر" : هو الطاعة لله بفعل الواجب، وقيل: عموم الخير وهو أعم، وكليهما صحيح.

٤ – " وَتَنْسَوْنَ ": أي: تتركون، كما في قوله تعالى: (**الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا**). وأمَّا المعنى الآخر للنسيان وهو عدم الذكر الذي صاحبه معذور فليس بمقصود في الآية.

٥ – " أَنْفُسَكُمْ " : إمَّا أن يكون معناها (ذواتكم) أي: أتأمرون الناس بأوجه الخير ولا تأمرون ذواتكم بذلك.

والمعنى الثاني: "أَنْفُسَكُمْ" أي: قومكم وجماعتكم؛ لأن الله في كتابه ذكر الأنفس وأراد به الغير من الإخوان والأقوام كما في قوله تعالى " وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ " أي: إخوانكم وقومكم المؤمنين، والمعنى: أتأمرون غير قومكم ومقربيكم بأوجه البر ولا تأمرون من هم أولى بنصحكم وأمركم لهم بالبر وهم الأقربون؟!

٦ – " وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ": الواو هنا حالية، والمعنى: تنسون أنفسكم حال كونكم تتلون الكتاب.

٧ – " تَتْلُونَ الْكِتَابَ": أي: تقرءونه قراءة تلو قراءة فيكررون القراءة ، ومعنى الآية: أنهم يأمرون الناس بالخير الدال على علمهم به ويتركون أمر أنفسهم بذلك وهم في هذا الوصف الشنيع حال المداومة على قراءة الكتاب وهذا غاية في القبح ولهذا قال تعالى: " أَفَلا تَعْقِلُونَ " أي: أفلا تدركون أن فعل ذلك من أقبح ما يكون؟!

قول الله تعالى: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}.

فيه من الفوائد:

١- "وَاسْتَعِينُوا" أمر من الله تعالى لبني إسرائيل بطلب المعونة من الله، وذلك باتخاذ سببين:

الأول: وهو الصبر، وهو حبس النفس على الطاعة، وحبسها عن المعصية، وحبسها عن الجزع والمعارضة لأقدار الله.

والسبب الثاني: في قوله تعالى "وَالصَّلاةِ": أي: وبالصلاة.

والمعنى: استعينوا على فعل ما أمرتم به، واجتناب ما نُهيتم عنه مما سبق بالصبر على فعل المأمور، وترك المنهي عنه، والصبر على أقدار الله وكذلك الاستعانة بالصلاة التي هي عمود العبادات والجامعة لغيرها من التعبدات كالدعاء والسجود والركوع والذل والقنوت والإخبات لله رب العالمين هذه العبادة التي هي سبيل إلى فعل غيرها من العبادات والتي هي سبيل للانتهاء عن الفحشاء والمنكر والبركة في الأرزاق وتفريج الكربات.

والاستعانة بالصلاة له فوائد:

الأولى: أن العبد بالاستعانة بها ينتهي عن الفحشاء والمنكر لقوله تعالى " إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ".

الثانية: أنها سبب في زيادة الرزق لقوله تعال:ى " وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى".

الثالثة: أنَّ في الاستعانة بالصلاة سبب في تفريج الكروب والهموم ، كما في حديث النبي صلى الله عليه وسلم عَنْ حُذَيْفَةَ، قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِذَا حَزَبَهُ - أي: أهمه- أَمْرٌ، بادر إلى الصلاة ». وغيرها من الفوائد.

٣- والمعنى: "وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ" أي: ذات مشقة وثِقَل، واستثنى الله تعالى الخاشعين أي: الخاضعين المتذللين له ظاهرًا وباطنًا فلا تحصل لهم كراهية للصلاة ولا كراهية للاستعانة بها بل إن ذلك محبوب لديهم فكيف يشق ذلك عليهم؟! إنَّما يشق ويُستثقل على الكاره للصلاة المبغض لها.

٤- "إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ":

اعلم –رحمك الله– أنَّ الخشوع نوعان: خشوع مذموم وخشوع ممدوح.

أمَّا الخشوع الممدوح: فهو خشوع الظاهر والباطن .

أمَّا الخشوع المذموم: فهو الخشوع الظاهر فقط من غير خشوع القلب، ولهذا كان عمر رضي الله عنه مَن وجده متخشعًا في جوارحه متكلفًا للخشوع ، عاقبه ونهاه وزجره.

قوله تعالى: {الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ}:

١– " يَظُنُّونَ" أي: يوقنون .

٢– "مُلاقُو رَبِّهِمْ " أي: يرون ربهم، ففي الآية دليل على إثبات رؤية الله –عز وجل– يوم القيامة .

٣– " وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ " أي: متيقنون رجوعهم إلى ربهم فيجازيهم على أعمالهم، فهذا من أوصاف الخاشعين.

* * * * *

قال تعالى: {يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ}.

من فوائد هذه الآية:

١- قوله: {يَابَنِي إِسْرَائِيلَ} سبق بيانه.

٢- قوله: {وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى العَالَمِينَ}: الفضل: هو الزيادة من الحسن والخير.

والعالمين: جمع عالَم: وهم الجن والإنس.

والمعنى: أن الله -عز زجل- زاد بني إسرائيل من الحسن والخير؛ أي: فضلَّهم على سائر المكلفين، ووجه هذا التفضيل من جهة الإيمان والعلم.

فـ(بنو إسرائيل) فُضِّلوا على أهل زمانهم لكونهم هم أهل الإيمان والصلاح والتوحيد والعلم في ذلك الزمان، فالتفضيل ليس تفضيلاً عامًّا في كل زمان، وخلاصته أنهم فُضِّلوا على سائر أهل ذاك الزمان لتحقق سبب التفضيل فيهم كما ذكرنا، فإذا زالت علة التفضيل زال التفضيل.

* قوله سبحانه: {وَاتَّقُوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ}:

من فوائد هذه الآية:

١- قوله: {وَاتَّقُوا يَوْماً}؛ أي: واتقوا عذاب يوم أو حساب يوم.

٢- قوله: {لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً}؛ أي: لا تُغنِي ولا تنفع.

٣- قوله: {نَفْسٌ}: نكرة في سياق النفي، فظاهر الآية العموم، ولكن هذا العموم غير مراد لِمَا جاءت النصوص من الكتاب والسنة أن أهل العصيان من الموحدين ينتفعون بشفاعة من أذن الله لهم بالشفاعة أو يقال: أن يظل العموم على عمومه غير أن معنى النفس الأولى غير معنى النفس الثانية، فالأولى: النفس المؤمنة، والثانية: النفس الكافرة، والمعنى: أنه لا تنفع ولا تغني النفس المؤمنة عن النفس الكافرة شيئًا يوم القيامة.

والمعنى الإجمالي لِمَا سبق من الآيات:

يا بني عبد الله وصفوته من خلقه (يعقوب) اذكروا نعمتي عليكم إذ جعلتكم من نسله، وجعلت فيكم أنبياء ورسل وأني إنما فضلتكم على غيركم بالعلم والإيمان والعمل الصالح،

فاتقوا عذاب يوم لن يُغنِي كونكم أبناء نبي وفيكم الأنبياء والصالحون فهذه الأنفس المؤمنة لن تُغنِي عنكم إذا فعلتم ما نُهيتم عنه بأن تكونوا أول كافر به، فلن تُغنِي عنكم بأي نوع من أنواع الغَنَاء أو النفع.

٤- قوله: {لاَ يُقْبَلُ} قُرِئ: بالتاء، وهي قراءة متواترة؛ أي: ولا تقبل.

٥- في هذه الآيات قطع لتعلق قلب العبد بالمخلوقين لعلمه أنهم لا يملكون مثقال ذرة من النفع، وأن ذلك كله لله رب العالمين.

٦- **الشفاعة**: هي الوساطة بجلب نفع أو بدفع ضر للمشفوع فيه.

٧- الشفاعة المنفية في الآية، هي الشفاعة من المؤمنين للكافرين، وأما إذا كانت من المؤمنين للمؤمنين فهذه شفاعة ثابتة مثبتة في الكتاب والسنة بشروطها.

٨- **العدل**: إما أن يكون معناه: العِوَض، وإما أن يكون معناه: الفِداء، وكلاهما ممنوع يوم القيامة في حق الكافر.

٩- قوله تعالى: {وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ}: أي: وليس لهم قوة ذاتية أو خارجية ينتصرون بها يوم القيامة.

قال الله عزوجل:

{وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٤٩) وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ (٥١) ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٢) وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (٥٣) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٥٤) وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}.

من فوائد هذه الآيات:

١- قوله تعالى (وَإِذْ): فهي أداة تفيد الظرفية الزمنية، ومعنى الآية: واذكروا نعمتي عليكم أيضًا زمان تنجيتي لآبائكم والتي هي في الحقيقة تنجية لكم، فكل نعمة على أسلافكم وآبائكم فهي نعمة عليكم.

٢- قوله تعالى (آلِ فِرْعَوْنَ): (فرعون) هو لقب يُطلق على كل مَن ملك مصر، و(آله) إمَّا جنوده وإمَّا أهل مملكته وعامة شعبه من القبط.

٣- قوله تعالى(يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ). أي: يكلفونكم من الأعمال أقذرها وأسوأها، ويُديمون عليكم ذلك الذل والاستضعاف.

٤- قوله تعالى: (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ). لم يقل يقتّلون أبناءكم لأن كلمة الذبح أدلُّ على المراد في بيان شناعة هذا الفعل.

٥- قوله تعالى: (وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ). أي: يتركوهن أحياء لا على سبيل الرأفة والرحمة بهن وإنَّما إمعانًا في إذلال بني إسرائيل وسومهم سوء العذاب لأن مع توارد ذبح الذكور تبقى النساء مُضيعات من غير حافظ لهن من محارمهن أو أزواجهن فيتجرأ عليهن كل من أراد، سواء بإذلالهن بالخدمة أو التعرض لهن

في أعراضهن، ولا شك أنَّ هذا أسوأ عذابًا وذلاً من ذبحهن.

٦- قوله تعالى: (وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ). إشارة إلى سوء العذاب الذي هو ذبح الأبناء واستحياء النساء والإذلال والمهانة لبني اسرائيل، وقيل أنَّ الإشارة إلى نعمة الله تعالى العظيمة بإنجائهم من فرعون كما قال تعالى: (وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً). وجاء هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال الله عزوجل:

(وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٠) وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ).

من فوائد هذه الآيات:

١- قوله تعالى: (وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ). أي: جعلنا البحر فرقتين بينهما طريقًا يبسًا.

٢- قوله تعالى: (وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ). أي: أنَّ هذه الآية العظيمة في إنجائكم لَم تُخْبَرَوا بها إخبارًا، وإنَّما كانت نظر عين وشهود لها بأنَّ عين ما كان سببًا في نجاتكم كان سببًا في إغراق فرعون وآله.

٣- فكيف قابل بنو إسرائيل هذه النعمة العظيمة، قال الله تعالى: (ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ). أي أنَّ قومًا منهم ارتكسوا في فطرهم وقست قلوبهم وجحدوا نعمة الله عليهم التي رأوها بأعينهم فاتخذوا عجلاً صنعوه بأيديهم إِلَهًا من دون الله تعالى يعبدونه من دونه.

٤- في هذه الآيات أنَّ الله تعالى آتى موسى الكتاب والفرقان، أي: الكتاب الذي فرَّق الله به بين الحق والباطل.

٥- ثم بيَّن الله تعالى أنَّه بعد إنجائهم من القتل والذبح لأبنائهم على يدي فرعون وآله أشرك بعضهم بالله فدعاهم موسى -عليه السلام- إلى التوبة، وجعل برهان صحة توبتهم أن يقتل بعضهم بعضًا، وهذا برهان على أنَّ الجزاء من جنس العمل، وأن الإنسان عند مخالفته للشرع يُعامل بنقيض قصده.

قال الله تعالى: (وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (٥٥) ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٥٦) وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

من فوائد هذه الآيات:

١- في هذه الآيات بيان لسوء أدب بني إسرائيل مع نبيهم في قولهم: (يا موسى).فلم يقولوا: يا نبي الله، و لم يقولوا: يا كليم الله.

٢- فيه بيان قلة عقولهم إذ اشترطوا لقبول ما جاء به موسى -عليه الصلاة والسلام- من البينات والهدى ما هو ممنوع وقوعه في الدنيا وهو رؤية الله تعالى، وبيان ذلك في قوله تعالى مخاطبًا موسى -عليه السلام-: (قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ).

٣- وفي هذه الآيات بيان لعظيم حِلْم الله تعالى على خلقه.

٤- في هذه الآيات بيان أنَّ الله تعالى لا يعجِّل للخلق عقوبتهم، وإنَّما يمهلهم رحمة بهم حتى يتوبوا إلى ربهم، وذلك في قوله تعالى: (وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).

٥- **المنُّ** : هو كل طعام طيب من غير كلفة وقيل العسل.

والسلوى : هو طائر صغير يُعرف بالسمَّان أو شبيه به.

قال الله تعالى: (**وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ**).

ففي هذه الآية من الفوائد:

١- قوله تعالى :(**وَإِذْ قُلْنَا**) فيها إثبات صفة الكلام لله عز وجل.

٢-في هذه الآيات أن الأمر يكون للوجوب ويكون أيضًا للإباحة فيكون للوجوب وهو الأصل في الأمر لقوله عز وجل: (**ادْخُلُوا**) ويكون للإباحة لقرينة دلت على ذلك مثل قوله: (**فَكُلُوا**).

٣-أن هذا الأكل من القرية حيث شاءوا رغدًا ليس من باب الغنائم وإنما من باب الإباحة لهم أن يسكنوا القرية بدلاً عن الذين كفروا؛ لقول النبي – صلى الله عليه وسلم-: ((أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً)). فالغنائم من فضائل النبي –صلى الله عليه وسلم-.

٤-مقابلة نعم الله عز وجل بالشكران ويكون بزيادة التذلل لله عز وجل، والتقرب إليه والدعاء له بأن يغفر الخطايا ويستر العيوب والرزايا.

٥-قوله تعالى: (**وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ**) فيه أن الله عز وجل واسع الكرم والرحمة فيتفضل على المحسنين بزيادة الإحسان إليهم وفي هذا بيان على أن الجزاء من جنس العمل.

٦-وفيها أيضًا أن ما ينعم الله عز وجل به من الثمرات في الدنيا، على المؤمنين أنه يتقدم بين يدي ذلك فعل الطاعات وترك المنكرات وهو مأخوذ من قول الله عز وجل :(**وَادْخُلُوا الْبَابَ**)

٧-فإن أكلوا ما أباحه الله لهم أكلوه رغدًا أي: هنيئًا سهلاً نعيمًا لأنه لا مؤاخذة فيه ولا عقوبة عليه فليس يكدره عليهم أي مكدر ومنغص.

٨- في قوله تعالى: (**وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا**). (فسجدًا): فعل، وقوله تعالى: (**وَقُولُوا حِطَّةٌ**) هذا قول، فقدم الفعل على القول في هذه الآيات بيانًا أن الأمور بحقائقها الدالة عليها وليس بمحض الإدعاء والقول .

٩-أن من زاد في تواضعه لله والتجأ إليه ودعاه أن يغفر له خطاياه حكم الله بأنه من المحسنين وعندئذٍ سيزيد الله في إحسانه ونعمه عليه ورضوانه.

قال الله تعالى: (**فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**).

ففي هذه الآية من الفوائد:

١- شناعة تبديل أمر الله عز وجل وقبحه سواء كان التبديل بالقول أو بالفعل وسواء كان التبديل في الحرف أو المعنى .

٢-أن المبدل لأوامر الله عز وجل ظالم لنفسه مستحق للعقوبة بدلالة قوله تعالى :(**فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**).

٣-بيان عظيم عدل الله عز وجل إذ أخبر سبحانه أن التبديل كان من بعضهم وهم الذين ظلموا فكان هؤلاء هم أهل لوقوع العذاب "الرجز" المستحقون له بظلمهم وفسقهم .

٤- أن العبد لا يجب عليه أن يأمن جهة العقوبة فقد تأتيه من حيث لا يحتسب في قوله تعالى :(**فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ**).